الفصل الرابع والعشرون

فى ذكر ماهية الورد للمريد ووصف حال العارف من المزيد [١]

اعلم أن الوِرْدَ اسم لوقت من ليل أو نهار، يرد على العبد مكررًا فيقطعه فى قُربة إلى الله، ويورد فيه محبوبًا يَرِدُ عليه فى الآخرة.

والقربةُ اسم لأحد معنيين: أمر فُرض عليه، أو فضل نُدب إليه. فإذا فعل ذلك فى وقت من ليل أو نهار وداوم عليه فهو وِرْدٌ قدَّمه يَرِدُ عليه غدًا إذا قَدِم.

وأيسرُ الأوراد صلاةُ أربع ركعاتٍ، أو قراءة سورةٍ من المثانى، أو سعى فى معاونة على برٍّ وتَقْوى.

قال أنس بن سيرين: كان لمحمد بن سيرين فى كل ليلة سبعةُ أوراد، فكان إذا فاته منها شىء قضاهُ بالنهار. فسَمَّى العملَ الموظَّف المؤقت وردًا.

وقال المعتمر بن سليمان: ذهبتُ ألقّن أبى عند الموت، فأومأ إلىّ بيده: دعنى، فإنى فى وِرْدى الرابع. فسمى الحزبَ من أحزاب القرآن لوقتٍ ما وِرْدًا.

فمن العمّال من كان يجعل الأورادَ من أجزاءِ القرآن. ومنهم من كان يجعله من أعداد الركوع. وفوق هؤلاء من العلماء كانوا يجعلون الأوراد من أوقاتِ الليل والنهار، فإن قطع الوقتَ بآيةٍ أو ركعة أو فكرة أو شهادة، فذاك وِرْدُه.

وأما العارفون فإنهم لم يوقّتوا الأورادَ، ولم يقسّموا الأوقات، بل جعلوا الوِرْد واحدًا لمولاهم، وجعلوا حاجتهم من الدنيا ضرورتهم، وصيروا الوقتَ متساويًا لسيّدهم، وتصريفَهُم لمصالحهم يدخل عليهم، فوضعوا رقابهم فى رقّ العبودية، وصفُّوا أقدامهم فى مصافِّ الخِدمة، فكانوا فى كلِّ وقتٍ بحكمِ ما يُستعملون،

---

(١) فى (ط): «بالمزيد» وأثبت ما فى (ك). وأيضًا هذا الفصل يختلف فى ترتيب أجزاء وفقرات منه بين المطبوعة والمخطوطة.

وبوصْف ما به يُطالَبون، ذلك وِرْدُهم، وتلك علامتهُم عن حسن اختيار الله عزّ وجلّ لهم، وجميل تولّيه إياهم. لا يكِلُهم إلى نفوسهم، ولا يولّيهم بعضهم؛ وهو يتولّى الصالحين. مشاهدتُهُم ذكرُهم، وقربُ الحبيب حبُّهم، ليس يشهدون فضيلةً فى غير محبوبهم، ولا يرجون قُربةً بغير معروفهم؛ به يتقربون إليه، وإليه يسبّحون له[١]، وعليه يتوكلون له، ومنه يخافون عنه، وإيّاه يحبّون منه. ولو أسقطوا الأعمالَ كلّها غير ما تعلّق بالتوحيدِ ثبوتُه ما نقصَ من توحيدهم ذرّة، ولو تركوا أورادَ المريدين كلّهم ما أثّر فى قلوبهم بقسوة ولا فترة؛ لأنّهم لا يزيدون بالأعمال فينقصون بها، ولا يتفقدون قلوبهم وأحوالهم بالأوراد فيعرفون النقصان والمزيدَ منها، ولا تجتمع همومُهم بسبب، ولا يقوى يقينُهم بطلب؛ فَيَتَشتَّت لفقدِ سببٍ، ويضعف يقينهم لعَدم طلبٍ[٢]. هذه المعانى هى أحوال المريدين.

وجملةُ تَغيُّرُهم فى شيئين: ضيقُهم بالخالق فهربوا منه، واتساعُهم بالخلق فاستراحوا إليه. ولو دام قُربهم منه لدامت راحتهم به، ولو وَقَفتْ شهادتُهم عليه لما نظروا إلى سواه[٣].

وأمّا العارفون فقد فرغ لهم من قلوبهم، واجتمعت المتفرقات بمجامعها لهم، وأقامهم القائمُ لهم بشهادتهم له، فلهم بكل شىء مزيد، ومن كل شىء توحيد. كلّ خاطرٍ بهم يردهم إليه، وكلّ منظور إليه يدلُّهم عليه، وكل نظرة وحركة طريق لهم إليه. فتوحيدهم فى مزيد، ويقينهم فى تجديد، بغير تغيير ولا تَصْريد[٤]، ولا إيقاف ولا تحديد. ولربّما طلب أحدُهم التسببَ بالأسباب، فيجمعه بها ربُّ الأرباب؛ لأنه مراد بالاجتماع، وإنما استروح بالشّتات لاستجمام ما هو فى قلبه آتٍ، ثقةً منه بحبيبه، وتمكنًا عند محبوبه، إذ قد علم أنه طالب، فطرح نفسه ليحمله، فحمله بما تولاه، ولم يكِلْه إلى نفسه وهَواه.

---

(١) فى (ط): «وإليه به يسبحون له» وأثبت ما فى (ك).

(٢) فى (ط): «ولا تجتمع قلوبهم بسبب، ولا تقوى نفوسهم بطلب، فتشتت لفقد سبب، ويضعف يقينهم لطلب» وهى مضطربة جدًا وخطأ محض، وأثبت ما فى (ك).

(٣) هذه الفقرة ليست بالمخطوط، ومعناها مضطرب.

(٤) تصريد: تقليل.

فهذه مقامات لأهلها لا يعرفها سواهم، ولا تصلُح إلا لهم، ولا تليق إلا بهم، ولا يُقاس عليها، ولا يُدَّعى مكانها، ولا تُنتظَر فتُترَك لها الأوراد، ولا تُتَوَقَّع فيُقَصَّر لأجلها فى الاجتهاد. والمرادون بها محمولون بها، مواجهون بعلمها، مسلوكٌ بهم طريقها، مزوّدون زادها، وهى محبوسة عليهم مقصورة لهم، فهم لها سابقون.

فأولياء الله عابدوه، وقد عكفوا بقلوبهم لمن عبدوه، ونظروا إلى معبودهم الذى عكفوا عليه، ففهموا عنه فصلَ الخطاب، بما آتاهم من شهادةِ حكمه حكم الكتاب، إذ يقول: ﴿وَانْظُرْ إلى إلهكَ الَّذى ظَلْتَ عَلَيْه عَاكفًا﴾ [طه:٩٧] بعد قوله للغافلين[1] فوصفَهم معرِّضًا: ﴿نَعْبُدُ أصْنَامًا فَنَظَلُّ لها عَاكفين﴾ [الشعراء:٧١]، مع قوله: ﴿أَن امْشُوا واصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إنَّ هذَا لشَىءٌ يُرَادُ﴾ [ص:٦]، وقوله: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإنَّكَ بِأعْيُنِنَا﴾ [الطور:٤٨].

فعلموا أنّ الإخلاصَ الذى أُمروا به هو العبادة، ولا عبادة إلا بمجانبة الهوى، وبعدها الإنابة إلى المولى، أما سمعت قوله عزّ وجلّ: ﴿والَّذينَ اجْتَنبُوا الطَّاغُوتَ أنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إلى الله لَهُمُ البُشْرَى﴾ [الزمر:١٧]، وأيقنوا أن الصلاة عماد الدين، ولا صلاة إلا للمتقين، ولا تقوى إلا بإنابة، كما قال تعالى: ﴿مُنيبينَ إليه وَاتَّقُوهُ﴾ ثم قال: ﴿وَأَقيمُوا الصَّلاةَ وَلاَ تَكُونُوا منَ الْمُشْركينَ﴾ [الروم:٣١].

فهذه عبادةُ العارفين على سنّة النبيين، فإنابتُهم مشاهدتُهم لمذكورهم، كقوله فى وصف ضدّهم: ﴿كَانَتْ أعْيُنُهُمْ فِى غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِى﴾ [الكهف:١٠١]، فهم عن كشفٍ من ذكره، إذ كانوا بضد وصفهم، وحقيقة ذكرهم نسيانهم لسوى مذكورهم، بمعنى قوله: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إذَا نَسيتَ﴾ [الكهف:٢٤] فأخرجهم الذكرُ له إلى الفرار إليه كما فهموا عنه، إذ يقول: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام:١٥٢] فَفَرُّوا إلى الله، فلما هربوا إليه أواهم بقربه، ووهب لهم هدايةً إلى حُبّه، ونشر لهم من

(١) من هنا إلى آخر الفقرة غير واضح المعنى، ولعل هناك سقطًا أو تحريفًا.

رحمته، وطواهم فى قبضته، فلم يرهم إلا هم، ولم يعرفهم سواهم، وقد قال تعالى: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللهَ فَأْوُوا إِلَى الكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ [الكهف:١٦]، وقال تعالى: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات: ٩٩].

• ذكر الأوراد وما يرجى بها من الازدياد:

ولكن بمواصلة الأوراد المرسومة، والأعمال المؤقتة المعلومة، يستبينُ للمريد النقصانُ من المزيد، ويعرف قوةَ العزم والشره من وَهَنِ العادةِ والفَتْرة.

وفى الأوراد أيضًا فضيلةٌ وهو أنّ العامل إذا شُغل عنها بمرض أو سفر كتب له الملَك مثلَ ثوابِ ما كان يعمل فى الصِّحة. وقد يكون نومُ العارف أفضلَ من صلاة الجاهل؛ لأن هذا النائم سالم، وهو ذلك الزاهد العالم إذا استيقظ وُجد. وهذا الصائم القائم لا يؤمن عليه الآفات، وتطرقه الأعداء فى العبادات، وهو ذلك الجاهل المغتر إذا وُجد فُقد. وقد روينا فى خبر: «نوم العالِم عبادة، ونَفَسُهُ تسبيح». وفى الحديث: «عالم واحدٌ أشدّ على الشّيطان من ألف عابد». وروينا فى خبرٍ مقطوع: «لو وقعت هذه على هذه ـ يعنى السماء على الأرض ـ ما ترك العالم علمه لشيء، ولو فُتحت الدنيا على عابد ترك عبادة ربه».

ولأن العالِم قد يُكاشَف فى نومه بالآيات والعبر، ويُكشَف له الملكوت الأعلى والأسفل، ويُخاطَب بالعلوم، ويشاهد القدرةَ من معنى ما تشهده الأنبياءُ فى يَقَظتهم، فيكون نوم العارف يقظة؛ لأن قلبه حياة، ويكون يقظة الغافل نومًا؛ لأن قلبه موات، فيعدل نومُ العالِم يقظةَ الجاهِلِ، وتقرب يقظةُ الجاهلِ الغافلِ من نوم العالم.

كيف وقد جاء فى خبر أبى موسى «أن النبى ﷺ نظر إلى أُحُدٍ فقال: هَذا جبل أُحُد، ولا يعلم خلقٌ ما وزنه، وإن من أمتى مَنْ تكون التسبيحة منه والتهليلة أوزنُ عند الله عزّ وجلّ منه». وفى حديث ابنِ مسعود إذ قال لعمر: ما أنكرت أن يكون عملُ عبدٍ فى يوم واحدٍ أثقلَ مَن فى السموات والأرض؟ ثم وصف ذلك: بأنه هو

العاقل عن الله عزّ وجلّ، الموقن، العالِم به.

وقد سُئلت عائشة رضى الله عنها عن صلاة رسول الله ﷺ فى رمضان، فقالت: «ما كان يخص رمضانَ بشيءٍ دون غيره، ولا كان يزيد فى رمضان على سائر السنَة شيئًا».

وقال أنسُ بن مالك: «ما كنتَ تريد أن ترى رسولَ الله ﷺ نائمًا من الليل إلا رأيته، ولا تريد أن تراه قائمًا إلا رأيته. وكان رسولُ الله ﷺ ينام، ثم يقوم قَدْرَ ما نام، ثم ينام قدر ما قام، ثم يقوم قدر ما نام، ثم ينام، ثم يخرج إلى الصلاة».

وقالت عائشة رضى الله عنها: «ما صام رسولُ الله ﷺ شهرًا كاملاً قط إلا رمضان، ولا قام ليلةً إلى الصبح حتى ينام منها». قالت: «وكان يصومُ من الشهر ويُفطر، ويقوم من الليل وينام».

وفى الخبر الآخر: «كان يصوم حتى تقول لا يفطر، ويفطر حتى تقول لا يصوم، وكان يصبح صائمًا ثم يفطر، ويصبح مفطرًا ثم يصوم»

وفى الخبر الآخر: «كان يدخل من الضّحى، فيقول: هل عندكم من شىء؟ فإن قُدِّم إليه شىء أكل، وإلا قال: إنى صائم. وخرج يومًا فقال: إنى صائم، ثم دخل. فقلنا: يا رسولَ الله، أُهْدِى لنا حيس[1]. فقال: أما إنى كنت أردت الصوم، ولكن قَرِّبيه».

وكان وِرْدُه ﷺ حكم ما ورد عليه، فعن هذا المعدن يكون تصريف العارفين، ومن هذا المعنى تكون مشاهدة الموقنين، ليسوا مع الله بإيراد توقيت، ولا يقطع على تحديد، كما قيل لبعضهم: بأى شىء عرفت الله عزّ وجلّ؟ فقال: بفسخ العزائم وحلّ العقود.

ولكنّ الأورادَ طريقُ العمال، والوُظُف[2] أحوال العباد، منها دخلوا، وفيها

(١) الحَيْس: تمر يُخلط بسَمْنٍ وأقط، فيُعجن شديدًا، وربما جُعل فيه سَويق.

(٢) جمع: «وظيفة»، و«الوظيفة من كل شىء: ما يُقدَّر له فى كل يوم من رزق أو طعام أو علَف أو شراب» اللسان (وظف)، ورسمها فى المخطوط غير واضح، ولعلها تقرأ «الوظيف» أيضًا.

يُرفعون إلى أن يشهدوا الواحد، فتكون الأوراد كلّها وِردًا واحدًا، ويكونون بشهادتهم قائمين.

قال بعضُ العلماء من السلف: الإيمان ثلاثمائة خُلُق وثلاثة عشر [خُلُقًا][1]، على أعداد الأنبياء المرسلين، كل مؤمن على خُلُق منها، هو طريقه إلى الله عزّ وجلّ، ووجهته من الله عزّ وجلّ ونصيبه، وفي كل طريقةٍ من المؤمنين طبقةٌ، وبعضهم أعلى مقامًا من بعض.

وقال عالم آخر: الطرقُ إلى الله عزّ وجلّ بعدد المؤمنين. وقال بعض العارفين: الطُّرق إلى الله بعدد الخليفة. يعنى أن للشهيد بكل خُلق طريقًا، فقد صارت المكوّنات للمكوّن طرقات.

وروينا في الخبر: «الإيمانُ ثلاثمائة وثلاثة وثلاثون طريقةً، من لقى الله عزّ وجلّ بالشهادة على طريقة منها دخل الجنةَ». ومن هذا قوله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً﴾ [الإسراء:٨٤]. فدلّ أنهم كلّهم مهتدون، وبعضهم أهدى من بعض، بمعنى أنّه أقرب إلى الله عزّ وجلّ وأفضل. وقد ندب إلى القُرْب في الأمر بطلبه، وأخبر عن المقربين بالمنافسة في طلب القُرْب، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الوَسِيلَةَ﴾ [المائدة:٣٥] يعنى القرب. وقال تعالى فيما أخبر: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ [الإسراء:٥٧]، فأقربُ الخلق من الله عزّ وجلّ أعلاهم عند الله عزّ وجلّ، وأعلاهم عنده أعرفهم به وأفضلهم لديه.

وروينا في التفسير: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ [الإسراء:٨٤]. قال: على وحدانيته؛ يعنى بذلك على توحيده الذى يوحِّد الله عزّ وجلّ به ويعرفه منه. والشاكلة: الطريقة والخُلُق، قد شاكله، وقد شكل فيه.

ومن ذلك قول على رضى الله عنه: «لكل مؤمنٍ سيدٌ من عمله». فهذا السيد

(١) أثبتناها من (ك)، وقد ضبطها بفتح الخاء في الموضعين، وفيها أيضًا: «خمسة عشر».

من العمل هو الذى يرجو به المؤمن النجاة، ويفضل به عند مولاه.

وقال بعض العلماء: كان عبّادُ الكوفة أربعة: أحدهم: صاحب ليل ولم يكن صاحب نهار. والآخر: صاحب نهار ولم يكن صاحب ليل. وبعضهم: صاحب سر ولم يكن صاحب علانية والآخر: صاحب علانية ولم يكن صاحب سر.

وقد كان بعضهم يفضّل عبادةَ النهارِ على عبادة الليل؛ لما فيها من مجاهدة النفس، وكف الجوارح؛ لأنّ النهارَ مكان حركة الغافلين، وموضع ظهور الجاهلين، فإذا سكن العبد عند حركة الغافلين وموضع ظهور الجاهلين كان هو التقيُّ المجاهد والفاضلُ العابد.

وقد قيل: إن العبادة ليست الصوم والصلاة حَسْبَ، بل أفضل العبادة أداءُ الفرائض، واجتنابُ المحارمِ، وتقوى الله عزّ وجلّ عند اكتساب الدرهم، وهذا من أعمال النهار. وقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿**وَهُوَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ**﴾ [الأنعام: ٦٠] رأى ما كسبت جوارِحُكم، فعلّق الاجتراح بالنهار، ثم يبعثكم فيه، فإذا لم يعلم من عبدٍ اجتراحًا بالنهار، ولم يبعثه فيه فى مخالفة، فمَن أفضَلُ منه؟

وكان الحسن يقول: أشدُّ الأعمال قيامُ الليل بالمداومةِ على ذلك.

ومداومةُ الأورادِ من أخلاق المؤمنين وطرائق العابدين، وهى مزيدُ الإيمان، وعلامة الإيقان.

وسُئلت عائشة رضى الله عنها عن عمل رسول الله ﷺ، فقالت: «كان عمله ديمةً، وكان إذا عمل عملاً أتقنه». وهذا كان سبب ما نُقل عنه ﷺ من صلاته بعد العصر ركعتين أنّه كان ترك مرة ركعتى النافلة بعد الظهر، شغله الوفد[1] عن ذلك، فصلاهما بعد العصر، ثم لم يزل يصليهما بعد العصر كلما دخل منزله. رَوَت ذلك عنه عائشة وأمُّ سلمة[2]. ولم يكن يصليهما فى المسجد لئلا يستنَّ

(١) الوفد: يعنى وفد بنى عبد القيس، وقيل: وفد من بنى تميم.

(٢) حديث أم سلمة متفق عليه. وراجع آراء الفقهاء فى ذلك فى: نيل الأوطار، للشوكانى، ٣/ ٢٧.

الناس به.

وفى الخبر المشهور: «اكْلَفوا[١] من الأعمال ما تطيقون، فإنّ الله عزّ وجلّ لا يملّ حتى تملوا». وفى الحديث الآخر: «أحبّ الأعمال إلى الله عزّ وجلّ ما دِيم عليه وإن قلّ».

وقد روينا فى خبر: «مَنْ عوَّده اللهُ عزّ وجلّ عبادةً، فتركها ملالة مقته الله تعالى».

وفى خبر عن عائشة رضى الله عنها، وقد أسنده بعض الرواة من طريق: «كل يوم لا أزداد فيه علمًا فلا بُورك لى فى صباح ذلك اليوم». وقد جاء فى الخبر كلامٌ، تارةً يُروى عن الحسن بن على، وتارة يُروى عن الحسن البصرى، ومرة [عن عائشة رضى الله عنها. وبعضهم يحكيه][٢] عن رسول الله ﷺ [فى المنام][٣]: «من استوى يوماه فهو مغبون، ومن كان يومه شرًا من أمسه فهو محروم، ومن لم يكن فى مزيد فهو فى النقصان».

وفى لفظ آخر: «من لم يتفقد النّقصان من نفسه فهو فى نقصان، ومن كان فى نقصان فالموت خيرٌ له. ولعمرى إن المؤمنَ شكورٌ، والشاكر على مزيد».

❋ ❋ ❋

(١) اكلفوا: هو من كَلِفْتُ بالأمر إذا أُولعتُ به وأحببتُه.

(٢) ساقطة من (ط)، وأثبتناها من (ك).

(٣) فى (ط) بدلاً منها: «سمع يقول» وأثبت ما فى (ك).